الفصل الخامس
الحروف الشعورية غير الحلقية

الحاسة الشعورية:

لقد سبق أن تحدثت في الفصل الثالث من الباب الثاني بإيجاز عن دور التقمُّص الشعوري للأحداث والأشياء بمعرض قيام العربي بإبداع أصوات الحروف العربية. كما تحدثت أيضاً عن دور الاستبطان الشعوري للأصوات بمعرض قيامي باستيحاء معانيها. وبالمطابقة بين خصائص الحروف العربية ومعانيها على واقع المعاجم اللغوية أثناء دراستها، تبين لي كما لاحظ القارئ أن العربي قد اعتمد في مطلعه الحضاري على التوالي أسلوبين اثنين للتعبير عن معانيه. هما: كيفية النطق بالحرف إيماء وتمثيلاً ومن ثم صدى صوت الحرف في نفسه إيحاء.

أولاً– في كيفية النطق بالحرف إيماء وتمثيلاً:

للاهتداء إلى معاني كل حرف من هذه الزمرة من الحروف الإيمائية التي أبدعها العربي في المرحلة الزراعية، كان لابد لنا في دراستها أن نتقمص الأحداث والأشياء المعبَّر عنها، ومن ثم نُجري المطابقة بينها وبين كيفية النطق بصوت كل حرف منها، من (حركات الفم أو اللسان أو الأسنان أو الشفاه أو فك الحنك، أو النفَس) وذلك للكشف عن الرابطة التمثيلية المرئية المشتركة بينهما، وهذه الرابطة الإيمائية التمثيلية بين الحدث أو الشيء، وبين طريقة النطق بصوت كل من هذه الحروف، هي التي حددت المعنى العام للكثير من المصادر التي تبدأ أو تنتهي به، كما مر معنا في حروف (الميم و اللام، والفاء والشين...)....

ثانياً– في صدى صوت الحرف إيحاء ومحاكاة:

للاهتداء إلى معاني كل حرف من هذه الزمرة من الحروف التي أبدعها العربي في مرحلة الرعي، كان لابد لنا من استبطان صوته لاستيحاء خصائصه، وذلك للمطابقة بين موحياته الصوتية وبين خصائص الحدث أو الشيء أو الحالة

النفسية المعبّر عنها، وهذه الرابطة الإيحائية السمعية بينهما هي التي كانت تحدِّد المعنى العام لمعظم المصادر التي تبدأ أو تنتهي به، كما مر معنا في حروف: (الدال والكاف والباء والجيم والطاء والراء والزاي والقاف).

ثالثاً: في المزج بين الأسلوبين:

على أن العربي قد اعتمد في مراحل رعوية راقية الخصائص الصوتية للحروف الإيمائية بالذات، وذلك للتعبير إيحاء عن كثير من معانيه، وإن ظل يعتمد خصائصها الإيمائية أحياناً للتعبير عن معانيه المستجدة، كما لاحظنا ذلك في حروف (الثاء والذال والميم واللام والفاء....)، مما زاد دراستها تعقيداً.

أما الحروف الشعورية فقد اقتصر العربي على اعتماد خصائصها الصوتية إيحاء ومحاكاة للتعبير عن معانيه، من دون اعتماد طريقة النطق بها في حركات إيمائية تمثيلية. على أن العربي قد اعتمد كيفية التلفظ بأصواتها من حيث التشديد والتفخيم والإشباع، أو من حيث الترقيق والترخيم والخنخنة، وذلك لتلوين معانيها، كما سيأتي.

ونظراً لتنوع الخصائص الصوتية لمعظم الحروف الشعورية تبعاً لكيفية التلفظ بأصواتها، فإنه لابد أن يقع التناقض في هذه الخصائص. وهذا التناقض لابد أن ينعكس أحياناً على معاني المصادر التي تشارك فيها هذه الحروف، دون أن يكون ثمة أي مبرر له من تدخل أصوات حروف أخرى، إلا الاختلاف في كيفية التلفظ بها كما سيأتي.

ولذلك رأيت أنْ أُكثِر مِنْ سَرْدِ المصادر بمعرض الكشف عن مختلف الخصائص الصوتية لكل من الحروف الشعورية تبعاً لكيفية التلفظ بصوته. كما رأيت أن أتتبع هذه الحروف جميعاً في آخر المصادر، وأن أتتبع معظمها في أواسطها أيضاً. وذلك للتحقق من أصالة خصائصها الصوتية في معاني المصادر على أوسع نطاق، فيكون للقارئ حصيلة غنية بالمفردات قلما تواتيه الفرص للاطلاع على غرائب صيغها ومعانيها.

ولئن كنت سأقتصر على سرد الأمثلة بما يتوافق معناه منها مع الخصائص الصوتية للحرف الشعوري موضوع الدراسة، فإن القارئ سيجد أن لخصائص أصوات الحروف المشاركة التي سبق لي دراستها، المزيد من الفضل في توضيح كثير من معاني الأمثلة موضوع الاستشهاد، كما سيجد أن كثيراً من الأمثلة قد سبق الاستشهاد بها بمعرض دراسة حرف كنت قمت بدراسته، هذا وسأعمد إلى

تذكير القارئ أحياناً بالحرف المساعد مع التنويه بخاصيته الصوتية ذات العلاقة، وذلك كدرس تطبيقي على استخلاص معاني الألفاظ من أصوات حروفها.

ولما كان الحديث عن الشعور كحاسة سادسة يدخل في نطاق علم النفس، فلقد رأيت أن أرجئ الحديث عنه في فصل خاص، إلى مابعد دراسة أصوات الحروف الشعورية، ذلك للإفادة منها في تتبع مختلف الحالات الشعورية التي عاناها العربي سابقاً بمعرض إبداع أصوات هذه الحروف ونعانيها نحن اليوم بمعرض استيحاء معانيها. وذلك لنرى كيف يتحول الشعور من حالات نفسية باطنية إلى أداة يعي بها ذاته، كحاسة سادسة لها طبيعتها الخاصة.

1- حرف الصاد

مهموس، رخو، يشبه رسمه في السريانية صورة الصبي. يقول عنه العلايلي: إنه (للمعالجة الشديدة)، وهو قريب من واقعه ولكنه قاصر.

هذا الحرف إنما هو تفخيم لحرف السين وصفيريٌّ مثله، إلا أنه أملأ منه صوتاً، وأشد تماسكاً، فهو من أصوات الحروف كالرصاص من المعادن رجاحةَ وزنٍ، وكالرخام الصقيل من الصخور الصمَّاء صلابة ونعومة ملمسٍ، وكالإعصار من الرياح، صرير صوت يقدح ناراً.

ولقد منحته هذه الخصائص الصوتية شخصية فذَّة طغى بها على معاني معظم الحروف في الألفاظ التي تصدرها، ليعطيها من نقاء صوته صفاء صورة وذكاء معنى، ومن صلابته شدة وقوة وفاعلية، ومن طبيعته الصفيرية مادة صوتية نقية ماكان أصلحها لمحاكاة الكثير من أصوات الناس والحيوانات وأحداث الطبيعة.

فمن مئة وخمسة وأربعين مصدراً تبدأ بحرف الصاد في المعجم الوسيط، كان منها ستة وعشرون مصدراً تدل معانيها على أصوات يتوافق معظمها مع خصائصه الصوتية. هي:

صأى الفرخ (صاح). صحِل صوته (بُحَّ وخشُن). الصخَب. صخّ الحجرُ (صوّت عند القرع). صدح الطائر (رفع صوته فأطرب).الصدى. صرخ. صرّ صريراً (صوّت). صرصر (صاح بصوت شديد متقطع). صرف الباب صريفاً (صوّت). الصفير. صفّق بيديه. صعِق الحيوان صعْقا (اشتد صوته). صفصف العُصفور (زقزق). صقب الطائر (صوّت). صقع الديك صقيعاً وصُقاعاً (صوّت). صلصل الشيء (صوَّت بترجيع). صلق صلّقا (صاح مولولاً). صلّ

السيف صليلاً (صوّت صوتا ذا رنين). صممصت القنفذ (صوّتت) صنج (ضرب الصنج) صهصه بالقوم (زجرهم ليسكتوا) صهل الفرس. صات صوتاً (صاح). صار صورا (صاح). صاح صيحاً وصِياحاً (صوت في قوة).

وكان منها عشرون مصدراً تدل معانيها على الصفاء والنقاء مادياً ومعنوياً، بما يتوافق مع خاصية الصفاء في صوته. منها:

الصباح. صحّ الشيء (برئ من كل عيب أو ريب). صحصح الأمر (تبين). الصحو. الصِّدق. الصراحة، ذهبٌ صَرْد (خالص). شراب صِرف (غير ممزوج بغيره) الصفح. الصفاء. الصقيل. الصلاح. الصلاة. الصوم.

وكان منها ثمانية وأربعون مصدراً تدل معانيها على الشدة والصلابة وقوة الشكيمة، بما يتوافق مع هذه الخصائص في صوته. منها:

صؤل البعير (اشتد هيجانه). صبر (تجلد ولم يجزع). صحنه (ضربه). صخد اليوم (اشتد حرّه). الصخرة. صدّه. صرمه (قطعه). الصعوبة. صفده (شدّه وأوثقه). صكّه (دفعه بقوة). صلته بالسيف (ضربه). الصلد (الصلب). الصلدم (الصلب المتين). صمح اليوم (اشتد حرُّه). الصُّمود. صمل صملا وصُمولا (اكتنز وصلب). الصِّنديد (الشريف الشجاع). الصولة. أصمى الصيد (أصابه فوقع بين يديه). الصيصة (الحِصن). صال عليه (سطا عليه ليقهره). صاد الوحش (قنصه).

وكان منها عشرون مصدراً قد أضفى الصاد بعذوبة صوته ونقائه على معانيها لمحة من صفاء ونقاء ورقة وشعر. هي:

الصبابة (الشوق)، صبا إليه (حنَّ وتشوق). الإصبع. الصاحب. الصِّراط. الصَّدغ. الصغير. أصغى إليه (أحسن الاستماع). الصمخة من النساء (الغضّة). الصِّنْو (النظير). لون أصهب (أصفر ضارب إلى الحُمرة). أصاخ إليه (استمع). الصّناعة. الصياغة. صاك الطيبُ (عِبق). صيّأ. النخيلُ (ظهرت ألوان البِسْر). تصنّف الشجر (بدأ ورقه وتنوع). صفّ القوم (انتظموا في صف واحد). الصيف.

وكان منها عشرة مصادر تدل معانيها على بعض العيوب النفسية والجسدية، دونما تشويه أو فجور أو قذارة. هي:

صأصأ الرجل وتصعصع (جبن). تصعلكت الإبل (طرحت أوبارها). صعفق (ضؤل جسمه). صعِل (كان دقيق الرأس والعنق). صلِج (صار أصمَّ). صلِخ (ذهب سمعه). صلِف (تكبر وثقلت روحه). صنّت الرائحة وصنمت (خبُثت،

لتدخل النون المخنخنة، كما سيأتي.

وهكذا قد طبع هذا الحرف بخصائصه الصوتية (78.5%) من معاني المصادر التي تبدأ به، وهي نسبة عالية تؤهله للانتماء إلى زمرة الحروف القوية.

وقد يتساءل القارئ:

لماذا صنفت حرف الصاد في زمرة الحروف الشعورية، ولم أصنفه سمعياً، مادام هو في الأصل صفيري الصوت؟

لقد بلغت المصادر التي تدل معانيها على أصوات في الجداول السابقة (26) مصدراً بنسبة (18%) مما لا نظير لذلك لدى أي حرف سمعي آخر. بينما اقتصر نصيب المشاعر الإنسانية منها على أربعة مصادر. هي:

الصبابة (الشوق). صبا إليه (حنَّ وتشوق). صأصأ الرجل وتصعصع (جبُن).

فكان حظ المشاعر الإنسانية من حرف الصاد أقل منه في كثير من الحروف غير الشعورية. ورداً على هذا التساؤل أقول:

لقد صنّفت هذا الحرف الصفيري شعورياً، لجمال صوته وعذوبة موسيقاه، ولما يثيره في النفس من إيحاءات النقاء والصفاء والطهارة والبراءة والعِزة وقوة الشكيمة.

مشاعر إنسانية مرهفة لم يتعرَّفها الإنسان العربي إلا في مرحلة بطولية من مراحله الرعوية الراقية، فأبدع صوت هذا الحرف، بتفخيم السين للتعبير عن هذه المعاني والمشاعر المستجدة. ليكون حرف الصاد بذلك من أنبل الحروف.

وهكذا رفعت حرف الصاد من الطبقة السمعية على الرغم من صفيريته، إلى مرتبة الحروف الشعورية لما يتمتع به صوته من أصالة ونبالة وروح فروسية. وللقارئ أن يعيده إلى زمرة الحروف الصوتية إن رغب في ذلك. وما أحسبه سيرغب.

ولكن ماذا عن حرف الصاد في نهاية الألفاظ؟

بالرجوع إلى المعجم الوسيط عثرت على مئة وثمانية عشر مصدراً تنتهي بالصاد، كان منها خمسة عشر مصدراً تدل معانيها على الشدة والصلابة والقوة. منها:

أصّت الناقة (اشتد لحمها). جصّ في الربّاط (تأوه من شدة ربطه به). حصّ الفرس حصصا (اشتد عدوه في سرعة). دعصه بالرمح (طعنه به). عاص الأمر

عوصاً (التوى فخفي وصعُب). قعصه (طعنه بالرُّمح). وهص الشيءَ (رماه رمياً عنيفاً).

وكان منها أربعة مصادر للصفاء واللمعان. هي:

بصّ بصيصاً (لمع وتلألأ). خلص (صفا وزال كدره). عرصت السماء (دام برقها). محص البرق (لمع). ولا شيء للأصوات. وقد سبق تعليل هذه الظاهرة الغريبة في حرف (الزاي) فليرجع القارئ إليه.

ولاشيء منها للمشاعر الإنسانية، وهذا كان متوقعاً، فليس الصاد في نهاية المصادر أوحى منه بالمشاعر الإنسانية في مقدمتها.

وهكذا هبطت نسبة تأثير حرف الصاد في معاني المصادر التي تنتهي به إلى (16%) فقط.

وكانت مفاجأة غير متوقعة، لما في صوته من موحيات الشدة الصلابة والصقل والصفاء. بل لوحظ أن معظم المصادر التي تنتهي به قد تأثرت معانيها بالخصائص الصوتية للحروف التي تقع في مقدمتها، كما في النماذج التالية:

دعصه بمعنى طعنه (للدال والعين). قعصه بمعنى طعنه بالرمح (للقاف). بخص عينه بمعنى فقأها (للباء). رعص، اضطرب (للراء). رقص (للراء) غاص (للغين). فرص الثوب شقه طولاً (للفاء)، لمِص العسل، لعقه بطرف إصبعه (لحرف اللام). مصّ (للميم).

مما يدل على أن العربي كان يلفظ الصاد في المواقع الخلفية مخففاً مرققاً، بلا تفخيم، كعادته مع أصوات الحروف التي تقع في نهاية الألفاظ.

ثم أخيراً، ماذا عن حرف الصاد في وسط المصادر؟

بالرجوع إلى المعجم الوسيط عثرت على خمسة وثمانين مصدراً يتوسطها حرف الصاد، بعد استبعاد مضعَّف العين منها لورود حرف الصاد فيها في نهايتها، وقد سبقت دراستها في هذا الموقع.

وكما كان الحال في المصادر التي تنتهي بالصاد، فإن معاني معظم المصادر التي يتوسطها هذا الحرف قد تأثرت بالخصائص الصوتية للحروف المشاركة ولاسيما ماوقع منها في أوائلها كما في الأمثلة التالية:

بصع الماء (رشح قليلاً: الباء للحفر والنفاذ). حصد الزرع (قطعه: الدال للشدة المادية). خصل الشيء (قطعه : الخاء هنا للتخريب، كما سيأتي). رصف

الشيء (ضمّ بعضه إلى بعض: الراء للتكرار). عصفت الريح (اشتد هبوبها: العين للشدة كما سيأتي). فصم الشيء (شقه: الفاء للفصل والشق والتوسع). قصب الشيء (قطعه: القاف للقوة والانفجار الصوتي، والباء للحفر). عصلب الرجل (كان شديد العصب: العين للشدة واللام للتماسك). لصب الجلد ولصغ ولصِق (بمعاني لزق: اللام للالتصاق). مصر الناقة (حلبها بأطراف أصابعه: الميم للمص والانجماع، والراء للتحرك والتكرار). نصع (صفا ووضح: النون للنقاء والعين للعيانية كما سيأتي). هصر الشيء وهصمه (كسره: الهاء للتخريب والراء للتحرك والتكرار).وصل الشيء بالشيء (ضمه به وجمعه ولأمه: اللام للالتصاق). وصم العود (صدعه من غير فصل والمعنى هو محصلة الصاد للشدة والصلابة، والميم للانجماع).

ولقد كان من هذه المصادر سبعة وعشرون مصدراً لمعاني الشدة والفعالية والقطع والكسر، قد تأثر سبعة عشر منها بخصائص الحروف المشاركة، كما لحظنا ذلك في بعض الأمثلة السابقة.

وكان منها ستة لمعاني الصفاء والنقاء والوضوح، قد تأثر أربعة منها بالحروف المشاركة. هي:

أصُل النسب أصالة (شرُف: للصاد). البصر: الباء للنفاذ والراء للتحرك). أفصح الصبح (بدا ضوءه وظهر: الفاء للانفراج، والحاء للرقة والجمال). لصف لونه (برق وتلألأ: للصاد). نصح المعدن والقلب وسواهما (خلص من الشوائب: النون للنقاء والحاء للرقة والجمال). نصع (صفا ووضح: سبق تعليلها أعلاه).

وكان منها مصدر واحد للأصوات: هو قصف الرعد (اشتد رعده: القاف للقوة والانفجار الصوتي). ولا شيء للمشاعر الإنسانية.

ومما يدعو للدهشة، أننا لم نعثر في هذه المصادر جميعاً على أي معنى من معاني البذاءة أو القذارة أو النتانة أو الفحش، أو مما يدخل في مضمار التشوهات النفسية والعقلية والجسدية سوى مصدر واحد، هو: (هصا هصواً (أسَنَّ وكبر)؛ للهاء المختصة أصلاً بالعيوب النفسية والجسدية كما سيأتي:

فلئن كانت الحروف العربية قد أثرّت في معاني معظم المصادر التي يتوسطها حرف الصاد، فإن هذا الحرف قد حماها جميعاً وحصنها من كل ماهو ناب وقبيح من المعاني، ليكون حرف الصاد بذلك من أنبل الحروف العربية.

2- حرف الضاد

يقول عنه العلايلي: إنه (يدل على الغلبة تحت الثقل) تعريف مبهم.

لقد حمل هذا الحرف لقب اللغة العربية، فقيل (لغة الضاد)، وقد أسند بعضهم هذا اللقب إلى الحديث الشريف:(أنا أفصح من نطق بالضاد). إلاّ أن الشراح لم يثبتوه. أما المتنبي فقد أثبته في قوله:

لا بقومي شرُفتُ بلْ شرُفوا بي وبنفْسي فخَرت لا بجُدودي

وبهمْ فخرُ كلِّ مَنْ نطقَ الضاَ دَ وعوذ الجاني وغوثَ الطريدِ.

وما أحسب أن المتنبي هو الذي أبدع هذا اللقب. فمسألة صعوبة النطق بالضاد الأصيلة قد أثيرت قبل المتنبي بزمن طويل، كما سيأتي:

الاختلاف في نطق الضادّ:

لقد اختلف علماء اللغة العربية في مخرجها وشِدَّتها اختلاف العرب أنفسهم في كيفية النطق بها.

يُستفاد من البحث الذي خصَّصه الدكتور أنيس في كتابه (الأصوات اللغوية) بهذا الصدد، إن الضاد القديمة، وإنْ كانت مجهورة كالضاد الحديثة (يهتز مع صوتها وترا الحنجرة)، فإنها قد تطورت من الرخاوة إلى الشِّدة.

فالضاد التي تلفظها مصر هي اليوم أشبه بالدال. والضاد السورية مفخمة وأشد انفجاراً. أما في العراق فيلفظونها ظاء رخوة، علماً أن التلفظ بالضاد ظاء كان لغة كثير من القبائل العربية. ونُقل عن الأصمعي قولُه: "إنَّه تتبع لغات العرب كلها (أي لهجاتهم)، فلم يجد فيها أشكل من الفرق بين الضاد والظاء) (الأصوات اللغوية ص54).

النطق بالضاد القديمة:

يُستفاد من وصف الخليل بن أحمد الفراهيدي أن العُضوين المكوّنين للنطق بالضاد القديمة ينفصلان انفصالاً بطيئاً نسبياً، فحلّ الانفجار البطيء في صوتها محل الانفجار الفُجائي، ولهذا السبب قال ابن الجوزي في كتابه (النشر في القراءات العشر): (إن الضاد انفردت بالاستطالة ، وليس في الحروف مايعسُر على اللسان مثله، فألسنة الناس فيه مختلفة)، (الأصوات اللغوية ص 51).

كما أكد علماء اللغة القدامى: (أنَّ النَّفسَ مع الضاد القديمة بعد خروجه من

الحنجرة يتخذ مجراه من الحلْق إلى الفم، إما عن يسار الفم عند أكثر الرواة، وإما عن يمينه عند بعضهم، أو عن كلا الجانبين على رأي سيبويه): (المرجع السابق ص 49).

ونظراً لتداخل صوتي الضاد والظاء في اللهجات العربية، فإن نهاية مخرج الضاد القديمة لابد أن يكون قريباً جداً من بداية مخرج الظاء. لتكون الصعوبة البالغة في نطق الضاد القديمة تتلخص في امتداد مخرجها حتى بداية مخرج الظاء، مع البراعة في الفصل بينهما، وهذا ماجعل إتقان التلفظ بها فائق الصعوبة، فكان لا مثيل لها في لغات العالم، مما يؤهلها لحمل لقب اللغة العربية، على رأي معظم علماء اللغة العربية وادبائها.

ولهذا السبب من الصعوبة الفائقة في نطقها تراجع العراقيون وغيرهم من القبائل العربية القديمة بمخرجها قليلاً باتجاه الفم حتى استقر في مخرج الظاء، كما تراجع المصريون بمخرجها أكثر حتى استقر قرب مخرج الدال. أما السوريون فقد تقدموا بمخرجها قليلاً نحو الحلّق. إشباعاً وتفخيماً، فكان صوتها أشد انفجاراً من الضاد الأصل.

وهكذا ضاعت الضاد القديمة من على ألسنة العرب، ولم يعد لها وجود على الإطلاق.

الخصائص الصوتية للضاد:

لابد لهذه الخصائص أن تختلف باختلاف مخرجها على المدرج الصوتي. فإذا لفظت الضاد مُفخمة شديدة الانفجار كما في سورية كانت تفخيماً للدال، لتصبح بذلك أعلى منه نبرة وأملأ صوتاً وأكثر تلوناً بإيحاءاته الصوتية.

وصوت الضاد في حالة التفخيم والتشديد يوحي بالصلابة والشدة والدفء كأحاسيس لمسية، وبالفخامة والضخامة والامتلاء كأحاسيس بصرية، وبالضجيج كإحساس سمعي، وبالشهامة والرجولة والنخوة كمشاعر إنسانية.

وإذا لفظت بما يشبه الدال المرققة كما في مصر كانت ضاداً مخففة بنطقها وخصائصها الصوتية، وبذلك تكون أقل إيحاء بالشدة والقساوة من الدال ذاتها، ولا مايوحي بالفخامة والضخامة والضجيج، ولا بأية مشاعر إنسانية كما لحظت ذلك في حرف (الدال).

ولكن ما موقف المعاجم اللغوية من هذه اللهجات الثلاث؟

إذا كنا لا نعرف اليوم كيف كانت الأجيال العربية الأولى تنطق بالضاد القديمة، فإننا بالرجوع إلى معاني الألفاظ التي تشارك فيها نستطيع أن نرجح أيّ اللهجات الثلاث (المصرية، أم السورية، أم العراقية) هي الأقرب إلى الأصل؟

بالرجوع إلى المعجم الوسيط عثرت على خمسة وتسعين مصدراً تبدأ بحرف الضاد، كان منها أحد عشر مصدراً تدل على أصوات ضجيجية بما يتوافق مع صوت الضاد السورية، هي:

ضأضأ (جلب وصاح). الضوضاء. الضُّباح (صوت الثعلب). ضجّ (جلب وصاح من مشقة أو فزع) ضحِك. ضرط. ضغْ (اسم صوت لزجر الإبل). ضغضغ الادرد اللقمة (لاكها ومضغها فسُمع له صوت). ضغا ضغاء وضغوا (صاح من الألم). ضوضى (صاح وجلب).

كما كان منها اثنان وخمسون مصدراً تدل معانيها على الضخامة والشدة والامتلاء، بما يتوافق مع موحيات صوت الضاد السورية، منها:

ضأزه (جار عليه). الضباب. ضبج (ألقى نفسه على الأرض من ضرب أو تعب) ضبر (جمع قوائمه ووثب). ضجع (وضع جنبه على الأرض). الضجم (الأكول). الضخم. ضدَّه في الخصومة (غلبه). ضَدِيَ ضدا (امتلأ غضباً). ضرجه (شقه). ضرحه (شقه). الضرر الضِّرس. الضِّرع (مَدَرُّ اللبن لإناث الحيوان، لضخامته). الضِّرغام (الأسد). الضِّراك (الغليظ الشديد العصب). ضرِيَ ضراوة (اشتد). ضزنه (غلبه على مافي يده). ضعضع البناء (هدّمه حتى الأرض). ضغطه. ضغمه (عضه شديداً بملء فيه). الضِّغْن (الحقد الشديد). ضفر وضفز (وثب وعدا). ضكضك (أسرع في مشيه). ضكَّه (ضغطه بشدة). الضليع. الضّنْك (الضيق). ضهده واضطهده (أذلَّه وظلمه). ضار ضوراً (اشتد جوعه). ضاره ضيراً (أضرّ به). ضازه ضِيزاً (ظلمه). الضيق. الضُّماضِم (الأسد الغضبان، والأكول النَهم لا يشبع). ضنأت المرأة وضنت (كثُر نسلها). الضاهر والضهر (أعلى الجبل). ضاج الوادي ضوجاً (اتسع). ضان ضوناً (كسر نسله وولده).

وكان منها أربعة وعشرون مصدراً تدل معانيها على الرقة أوالنضارة أو الضعف، بما يتوافق مع الخصائص الصوتية للضاد المصرية، وإن كانت الضاد السورية أكثر انسجاماً مع أصوات الحروف التي يتألف منها معظم هذه

المصادر. منها:

ضؤل (صغر). الضائق (الضعيف اللين، والحسن الجسم من غير امتلاء). ضأى (ضؤول جسمه ودق). الضحُّ (الشمس، أو ضوؤها على الأرض). ضحضح الأمر (تبين). ضحل الغدير (قل ماؤه). ضحا ضحوا (برز للشمس). ضلّ (خفي وغاب). اضمحل (ضعف) ضمر ضموراً (هزل وقل لحمه). ضَنِيَ وضنا وضناء (اشتدَّ مرضه حتى نحل). ضاع الشيء ضوعاً (تحرك فانتشرت رائحته). ضَوِي ضَواً (ضَعُفَ) الضياح (اللبن الرقيق الكثير المياه). ضاع ضياعاً (فقد وأُهمل). ضعف (هزل). ضاء الشيء (أنار وأشرق). ضاف إليه (دنا ومال واستأنس به).

وهكذا بلغت نسبة المصادر التي تتوافق معانيها مع صوت الضاد المفخمة الأقرب إلى اللهجة السورية (66.3%) بينما بلغت نسبةالمصادر التي يمكن أن تقبل الضاد المصرية المخففة، بشيء من التسامح (25.2%) . وبذلك ترجح اللهجة السورية في الضاد على اللهجة المصرية عدداً وكمّاً وكيفاً، بما مجموعه (91.5%).

ولكن ماذا عن الضاد في نهاية المصادر؟

بالرجوع إلى المعجم الوسيط عثرت على ثلاثة وستين مصدراً، كان منها مصدر واحد يدل على صوت. هو: الحبض (الصوت الضعيف). ولا غرابة في هذه الندرة، كما أسلفت.

وكان منها خمسة وثلاثون مصدراً تدل معانيها على الشدة والضخامة والامتلاء، بما يتوافق مع الضاد السورية. منها:

بُضّ البدن (امتلأ ونضُر). بعضه البعوض (عضّه). بهضه (شقّ عليه). جرضه (خنقه). حضّه (حثّه). رضّه ورضرضه (دقّه). ركض. رمِض اليوم (اشتد حرّه). خاض الماء (دخل فيه ومشى). عضّ. فضّ اللؤلؤة (خرقها).فاض الماء. الفيوض (الواسع). قرضه (قطعة بالمقراض) قضّ الجدارَ (هدّه بعنف). قاض البناء (هدّمه). نهض (قام يقظاً). هضَّت الإبل (أسرعت). هاض الشيء (كسره). وفض (عدا مسرعاً). النحض (اللحم المكتنز). الهِنْبضُ (العظيم البطن).

وكان منها ثمانية عشر مصدراً تدل معانيها على الرقة أو النضارة أو الضعف بما يتوافق مع الضاد المصرية. منها:

باض بَوْضاً (حسن وجهه بعد كلف). حرِض الثوب (بليت أطرافه). خفض

(حط بعد عُلوٍّ). رحض الثوب (غسله). غمُض (خفي). غاض الماء (غاب في الأرض). المحض (الخالص من كل شائبة). المرض. نبض (تحرك في مكانه). نضَّ الماء (سال قليلاً). نفض الكرم (تفتحت عناقيده). ومض البرق (لمع خفيفاً).

أما المشاعر الإنسانية فكان لها مصدر واحد هو معض من الأمر (غضب وتألم) بما يتوافق مع الضاد السورية.

وهنا ترجح أيضاً كفةُ اللهجة السورية على المصرية بنسبة (57%) إلى نسبة (28.6%) مع الإشارة إلى أن معظم المصادر التي تدل معانيها على الرقة والضعف، تتوافق أصوات حروفها مع الضاد السورية، لا المصرية، فكانت نسبة تأثيرها في معاني المصادر هنا (87.33%).

ثم بملاحقة الضاد في وسط المصادر، عثرت على ثلاثة وثمانين مصدراً، كان منها ثمانية وأربعون مصدراً تدل معانيها على الشدة والقوة الضخامة والامتلاء، بما يتوافق مع معطيات الضاد السورية في الشدة والتفخيم. منها:

بضع اللحم (قطعه). حضأت النار (التهبت). خضخض الشيء (حركه ورجرجه). خضمه(قطعه وأكله بجميع فمه، للرطب). قضمه (كسره بأطراف أسنانه، للرطب). رضحه (دقّه بحجر وكسره). عضب الشيء (قطعه). عضبر الكلبُ (استأسد) عضل به الأمر (اشتد واستغلق). الغضافر (الأسد). تفضّح (توسع). قضبه (قطعه). قضعه (قهره). لضمه (عنف عليه وألحّ). نضخ الماء (اشتد فورانه). مضغ الطعام.الهضبة. هضَّت الإبل (أسرعت). وضم القوم (تجمعوا وتقاربوا).

وكان منها خمسة وعشرون مصدراً تدل معانيها على الرقة والضعف والأناقة بما يتوافق إلى حد ما مع موحيات الضاد المصرية. منها:

الخُضرة. خضِل (ندي وابتل). الرُّضاب (الريق). الرَّضاع. رضيه (اختاره وقبله). غضَّت المرأة (رقَّ جلدها وظهر دمها). نضح (رشح). نضُر (كان ذا رونق وبهجة. وضؤ (حسنُ وجمُل ونظُف). وضح الأمر (بان).

ولم أعثر على أي مصدر يدل على صوت.

وكان للمشاعر الإنسانية خمسة مصادر تتصف معانيها بالشدّة والحدّة والسلبية بما يتوافق مع الضاد السورية. هي:

خضع. أضّه الأمر (حزنه وجهده). أضم عليه (أضمر حقده). الغضب. مضَّه (آلمه).

لترجح بذلك الضاد السورية على المصرية بنسبة (63.9%) إلى (30%). ليبلغ معدل النسب الثلاث)(61.7%) لصالح الضاد السورية و (28%) لصالح الضاد المصرية بما مجموعه (90%) وتلك نسبة عالية جداً تجعله في مقدمة الحروف العربية قوة شخصية. وبذلك تكون الغلبة من حيث الكمية العددية إلى جانب الضاد السورية.

ولكن ماذا عن الكيفية أيضاً؟

بالرجوع إلى جميع المصادر التي شاركت الضاد في تراكيبها في مختلف المواقع منها، يتضح أن معظم معانيها يتوافق مع الخصائص الصوتية للضاد المفخمة لا المرققة. فمعظم المصادر التي تدل معانيها على الشدة والضخامة والامتلاء والصلابة والنضارة والأصوات والمشاعر الإنسانية، لا تقبل الضاد المصرية قطعاً، وذلك للتعارض الكائن بين موحيات صوتها وبين تلك المعاني.

كما أن الجداول الثلاث التي صنفت مصادرها لصالح الضاد المصرية، وإن كانت معانيها تقبلها بشيء من التسامح، فإن جميع مايدل منها على الرقة والنضارة والأناقة، هي أقبل للضاد السورية، لما في صوتها من موحيات النضارة والأناقة والفخامة، كما في:

الضحى. ضوع العطر، الضوء. المحض، النبض، ومض البرق، الخضرة، الخضيلة (الروضة الندية). الرُضاب. النضارة. الوضوح....

ومنه يتضح أن الأجيال العربية الأولى إذا لم تكن قد لفظت الضاد بمثل فخامة وشدة الضاد السورية، فإنها لم ترققها قطعاً كالضاد المصرية، فترقيق صوت الضاد وتخفيضه من شأنه أن يحولها إلى دال قاحلة، لا أناقة فيها ولا نضارة ولامايوحي بأي شعور إنساني.

ومنه يتضح لنا صحة ماذهب إليه علماء اللغة القدامى، من أن الضاد القديمة الضائعة كانت تلفظ بصوت يجمع بين النضارة والأناقة والفخامة بشيء من القلقلة الرشيقة.

وقد يتساءل القارئ هنا أيضاً: لماذا لم تُصنَّف الضاد في زمرة الحروف السمعية، لما في صوتها من موحيات الضجيج؟ وقد كان هناك أحد عشر مصدراً تبدأ بالضاد تدل معانيها على أصوات، بينما لم يكن منها سوى ثلاثة للمشاعر الإنسانية. هي: ضجر (ضاق وتبرم). ضَدِيَ ضداً (امتلأ غضباً).الضغينة (الحقد الشديد).

وأجيب عن هذا التساؤل):

لقد صنّفتُ الضاد شعورية، لما يوحيه صوتها من المشاعر الإنسانية. فلتفخيم الضاد لابد من اعتماد التجويف الأنفي أثناء خروج صوتها. ليأخذ بذلك طابعاً متميزاً من الغُنَّة، تلطف من ضجيجه، وتُضفي عليه شيئاً من النضارة والرشاقة.

ولذلك فإن صوت الضاد بفخامته ونضارته وغُنّته، إنما هو أوحى أصوات الحروف قاطبة بمشاعر الشهامة والمروءة والشمم . ولا أدلّ على ذلك من أن الأصوات الغنائية التي تعتمد في غنتها التجويف الأنفي، إنما هي أشد أصوات الطرب إثارة لمشاعر النخوة والرجولة والعواطف القومية، كما في صوتي فايدة كامل في أغنية (يانيل)، واسمهان في أغنية (حنَّا روينا سيوفنا من القوم).

3- النون:

مجهورة متوسطة الشدة، رسمُها في السريانية يشبه النجم. معناها لغة: شفرة السيف أوالحوت أو الدواة، ولعل رسمها في العربية قد اقتبس من صورة إحدى هذه المسميات قبل أن يتطور إلى الرسم الحالي. فالنقطة في النون تمثل نتوءاً عند مقبض السيف، أو عين الحوت، أو مرتسم القلم في الدواة.

يقول العلايلي: إنها (للتعبير عن البطون في الأشياء). ويقول عنها الأرسوزي: إنها (للتعبير عن الصميمية). والمعنيان صحيحان ومتقاربان ولكنهما قاصران وهذه الإيحاءات الصوتية في النون مستمدة أصلاً من كونها صوتاً هيجانياً ينبعث من الصميم للتعبير عفو الفطرة عن الألم العميق (أنّ أنيناً).

ولذلك كان الصوت الرنان ذو الطابع النوني (أي ذو المخرج النوني)، الذي تتجاوب اهتزازاته الصوتية في التجويف الأنفي، هو أصلح الأصوات قاطبة للتعبير عن مشاعر الألم والخشوع. (المقرئ الشيخ عبدالباسط عبد الصمد).

على أن صوت النون إذا لفظ مخفَّفاً مرقَّقاً أوحى بالأناقة والرقة والاستكانة، وإذا لفظ مشدداً بعض الشيء. أوحى بالانبثاق والخروج من الأشياء، تعبيراً عن البطون والصميمية، كما قال العلايلي والأرسوزي.

أما إذا لفظ بشيء من الشدة والتوتر، فلابد لموحياته الصوتية أن تتجاوز ظاهرة الانبثاق العفوية، إلى النفاذ القسري والدخول في الأشياء، وإذا لفظ بشيء من الخنخنة (إخراج الصوت من الأنف). أوحى بالنتانة والخِسّة.

وإذن فإن موحيات صوت هذا الحرف ومعانيه تتغير بحسب كيفية النطق به، فهو يوحي تارة بالحركة من الداخل إلى الخارج، وهو الانبثاق، كما يوحي تارة أخرى بالحركة من الخارج إلى الداخل، وهو النفاذ في الأشياء.

وهذا فيما أرى ليس من قبيل الجمع بين المتضادات في معاني الحروف، كما يرى القائلون بجدلية الحروف العربية. فالحركة المنبثقة من الداخل إذا أعطيت مزيداً من الشدة، وسُلِّطت على الأشياء الخارجية فإنها بعد تجاوزها نطاق الذات، لابد أن تنفذ في الأشياء حتى صميمها وهي في ذات الاتجاه.

ولذلك فإننا إذا لم ننتبه إلى مبدأ حركة النون، يبدو لنا وكأنها قد عكست اتجاهها فانطلقت من الخارج إلى الداخل، وهو مجرد توهّم. ولذلك فإن كل فعل يبدأ بالنون مما يدل معناه على الانبثاق والظهور، هو في الأعم الأغلب فعل لازم، أما كل فعل يدل معناه على النفاذ في الأشياء فهو متعد إطلاقاً.

ولكن مانصيب هذه الخصائص الصوتية في النون، من رنين واهتزاز ورقة وأناقة وخشوع وخفاء وانبثاق ونفاذ، من معاني المصادر التي تبدأ بها؟....

بالرجوع إلى المعجم الوسيط عثرت على ثلاثمئة وثمانية وستين مصدراً تبدأ بحرف النون. كان منها تسعة وعشرون مصدراً تدلُّ معانيها على أصوات تحاكي في الغالب انبثاق صوت النون من الصميم، بما يتوافق مع مافيه من أنين أو رنين واهتزاز. هي:

نأج البوم (صاح). نأم الرجل (أنّ أنينا ضعيفاً). نبّ التيس (صاح). نبح الكلب. نحّ ونحنح (تردد صوته في جوفه). نحم (تنحنح وسعل). نحب الباكي (أعلى بكاءه).نخر (صوَّت بخياشيمه). نخف (صوت بأنفه). نده (صات). ناداه، نشج (البكاء). نشنشت القِدر (صوتت بالغليان). نشّ الشواء (صوت على النار). نعق الغراب ونغق ونعب (صاح). نعر (صوت بخيشومه). نغم (تكلم بخفاء). نقس الناقوس (صوت). نقّ ونقنق (للضفدع). نهت القرد (صاح). نهق الحمار.نهَم الأسد (صوت). ناحت الحمامة (سجعت). نتّ من المرض (أنّ). نشع (شهق حتى كاد يموت).

وكان منها اثنان وثلاثون مصدراً يغلب على معانيها الاهتزاز والاضطراب وتكرار الحركة، بما يحاكي الاهتزاز في صوت النون، في مطابقة بين الصور الصوتية لهذا الحرف وبين الصور المرئية لهذه الأحداث منها:

نبض القلب. نتق الوعاءَ (هزّه ليخرج مافيه). نجخ (هاج واضطرب). ندّ

البعير (نفر وشرد). نزا للشر (ثار وتحرك). نغرت القِدر (غلت)، انتفض (تحرك في ارتجاف واضطراب). نعظل (تمايل في مشيته يُمنة ويُسرة). نضنض الشيءَ (أقلقه وحرّكه). نصنص الشيء (حركه وقلقله). ناب إلى الشيء (رجِع إليه واعتاده، ومنه اشتقت لفظة (المتناوب للتيار الكهربائي)، ناض الشيء نوضاً (تحرك وتذبذب). نورج (اختلف إقبالاً وإدباراً). النَّيْرج (سرعة في تردد). ناص نيصاً (تحرك حركة ضعيفة). ناض العرق نيضاً (اضطرب). تنجنج في أمره (تحرك واضطرب).

وكان منها مئة وعشرون مصدراً تدل معانيها على الانبثاق والخروج، بما يحاكي خروج صوت النون من الصميم: منها:

نبأ (ارتفع وظهر). نأدت الأرض (نزّت بالماء). نبت. نبج الجرح (تورّم). نبع. نبغ الشيء بما فيه (نضّ ونضح). نتأ (برز في مكانه). نتجت الدابة (ولدت). نتح (رشح). نثج مافي جوفه (أخرجه). النُّخامة (مايلفظه الإنسان من بلغم). نثّ العِرْق (رشح). نجد المكان (ارتفع). نجم (طلع وظهر). نخج السقاء (رشح). ندص القيح (خرج من البثرة). نضب. نضح. نضخ الماء (اشتد فورانه من ينبوعه). نطف (قطر). نطق (تكلم). نظر. نذَع العَرَق (خرج قطرات). النَّزْع (خروج الروح، الاحتضار). نزِف. نزنز المكان (استمر نزّه). نشح السِّقاء (رشح). نشمت الأرض (نزّت). نصل من كذا (خرج منه). نسل ريش الطائر (انفصل عنه وسقط). نفر الرجل (خرج من وطنه وضرب في الأرض). نفست المرأة (ولدت). نفض الكرم (تفتحت عناقيده). نهض. ناه نيها (ارتفع). نفث (نفخ). نهد الثدي (برز وارتفع). نزح عن بلده (خرج منها). النزُّ (مايتحلب من الأرض من الماء).

وكان منها خمسة وأربعون مصدراً تدل معانيها على النفاذ في الأشياء مما يفيد الحركة من الخارج إلى الداخل. منها:

نبث الأرض (نبش ترابها وحفرها). نبش. نثل الشيء (استخرجه). نجث الشيء (استخرجه) نجله بالرمح (رماه به). نخره. نخرب الشيء (ثقبه ومنه نخاريب شهد العسل). نحره. نخسه. ندس فلاناً (طعنه خفيفاً). نضف الرضيع مافي الضرع (استخرج مافيه من حليب). نقب الجدار. نقث العظم ونقحه ونقخه (استخرج مخه). نقد الشيء (نقره ليختبره). نقر الطائر الشيء (حفره بمنقاره). نكت الأرض بعود (نقب فيها). نكح المرأة (تزوجها). نكز الدابة (نخسها). نكف البئر (نزحها). نهسه الكلب (عضه). نهشه (تناوله بفمه ليعضه). وهذه الأفعال متعدية جميعاً.

وكان منها سبعة وأربعون مصدراً تدل معانيها على الرقة والأناقة والضعف بلا عيوب نفسية أو جسدية، بما يتوافق مع صوت النون مرققاً مخففاً. منها:

النأي. نحُف ونحَل (دقْ وهزل). ندف القطن، نسك الثوب (غسله بالماء فتطهر). نضِّد العقد (ضمّ حباته إلى بعضها بانتظام). النفأل (القطع المتفرقة من النبت). النقطة، نيّق في مأكله وملبسه (تأنق). نعس (فترت حواسه للنوم). نقِه (برئ من مرضه ولا يزال به ضعف). نمس فلاناً (سارّه). نمّق الكتاب (أحسن كتابته). نهو الرجل (صار منتهياً في العقل). النور.

وكان منها خمسة مصادر تدل معانيها على عيوب، بما يتوافق مع صوت النون المخنخنة. هي:

نتن اللحم (فسدت رائحته). نجِس. نعثل (عرج). نفه (جبُن). نهتر (تحدث بالكذب).

وإن قلة معاني العيوب في المصادر التي تبدأ بالنون يرجع أصلاً إلى مجافاة خصائص الرقة والأناقة ومشاعر الخشوع في صوت النون مع معاني الفحش والقذارة والتشوهات النفسية والجسدية.

أما المشاعر الإنسانية فلم يكن لها سوى مصدرين اثنين. هما:

ندم (أسف). نغص عليه (كدّره).

وعلى الرغم من ندرة المصادر التي تدل معانيها على مشاعر إنسانية، وكثرة مادل منها على أصوات في الجداول السابقة، فقد صنفت هذا الحرف في زمرة الحروف الشعورية لا السمعية وذلك لما يثيره صوته الرنان في النفْس من مشاعر الحنين والخشوع والألم الدفين، على مثال مافعلت في تصنيف الصاد الصفيري. والضاد الضجيجي.

ولقد استطاع هذا الحرف على رقته وأناقته أن يطبع مباشرة بخصائصه الصوتية (76%) من معاني المصادر التي تبدأ به، كما استطاع أن يؤثر بصورة غير مباشرة على معانيها جميعاً، حماية لها من معاني القذارة والفحش والفظاظة وما شذ عن ذلك إلا خمسة مصادر. هي:

نتن (النون المخنخنة في نهاية المصدر). ونفه ونهتر (لتدخل حرف الهاء في هذين المصدرين). ونعثل للاضطراب في وزنه. ونجس.

ولكن ماذا عن معاني المصادر التي تنتهي بهذا الحرف الرقيق؟

بالرجوع إلى المعجم الوسيط عثرت على مئتين وستة وعشرين مصدراً، كان منها سبعة تدل معانيها على أصوات. هي:

أنّ (تأوه). حنّ (صوتّ)، خنّ (خرج صوت بكائه من أنفه). رنّ. شجنت الحمامة (ردّدت صوتها). طنّ. غنّ (كان في صوته غُنة).

وكان للاهتزاز والاضطراب مصدر واحد هو : زفن (رقص). وذلك يعود إلى حرف (الزاي). المختص أصلاً بمعاني الاهتزاز والاضطراب.

وكان للحركة من الداخل إلى الخارج مصدران اثنان. هما:

– دنّت العين (سال مافيها من عمش). عنّ الشيء (ظهر وبان). وهما فعلان لازمان. أما مايفيد الحركة من الخارج إلى الداخل. فكان له مصدر واحد هو (طعن) فعل متعد.

وكان منها ثمانية وخمسون مصدراً تدل معانيها على الرقة والأناقة والجمال، وفيها الكثير من مزايا النساء ومحاسنهن التي تتلاءم مع نظرة العربي إلى المرأة في المجتمع الرعوي.منها:

أرِن (نشط وفرِح). البَتْنة (الروضة والمرأة الحسناء). الجُمان (اللؤلؤة). الحُسْن. الحنان. خادنه (صادقه). امرأة رزان (ذات وفاء وعفاف). رقنت المرأة (اختضبت بالزعفران). زانه (جمّله). شبن الغلام (شبّ وامتلأ). الشادن (ولد الظبي). الظعينة (الهودج والزوجة). عَثِن الثوب (عبِق بدخان الطيب). الغسَّان (حِدّة الشباب). الغُصن. تعكنَّ البطن (تثنى لحمه سمنا). العين. فتنته المرأة (استهوته). الفن. الأفنون (الغُصن الملتف). فتاة فينانة (حسنة الشَّعْر طويلته). القَينة (المغنية والماشطة). لدُن (كان ليناً). اللسان. لَقِن (كان ذكياً). مرن (لان في صلابة). لان. ماء معين. الميسون (الغلام الحسن القد والوجه). هتنت السماء (أمطرت). تورَّن (أكثر من التدهُّن والتنَّعم). الوهنانة من النساء (الكسلى عن العمل تنعماً). الوسنى (امرأة فاترة الطرف، كسلى من النعمة). جارية جُهانه (شابة). ران عليه النعاس (غلبه). وسِن (أخذ في النعاس).

وكان منها أربعة وثلاثون مصدراً تدل معانيها على الإقامة والاستقرار والإحاطة والخفاء، بما يتوافق مع وضع المرأة في المجتمع الرعوي. وذلك على النقيض من موحيات صوت النون في مقدمة المصادر، من اهتزاز وانبثاق ونفاذ في الأشياء. منها:

أتن بالمكان، وبنَّ به، وسكنه، ورزن به، وعدن به، وعمن به، وعهن به، ومتن به ووتن به ووطنه بمعنى (أقام في المكان). أكن الطائر ووكن (دخل وكَنَه، أي عشّه). أمن (اطمأن). الجَفن (غطاء العين). جَنّ (استتر). حصُن المكان (صار حصيناً مانعاً). حضنه. دجن بالمكان (أقام فيه وألِفه). دفن. رجن بالمكان (ألِفه). رصُن (ثبت واستحكم). ركن إليه (مال إليه). رهن (ثبُت ودام). صان الشيء (حفِظه في مكان أمين). اطمأنَّ (ثبت واستقر). كفن. كمن (توارى). كنّ (استقر). هدن (سكن). وثن الشيء بالمكان (أقام وثبت فيه، ومنه الوثن للصنم). الوكن (عُشّ الطائر).

وكان منها ثلاثون مصدراً تدل معانيها على عيوب جسدية ونفسية وروائح نتنة، يغلب عليها طابع الضعف والتفسُّخ، دونما فظاظة أو فجور، وذلك بما يتوافق مع صوت النون المخنخن به. منها:

أَجِنَ الماء وأَسُن (تغيَّر طعمه). ثدِن اللحم ونتن (تغيَّرت رائحته). جبُنَ (خاف). حَشِن الوعاء (أنتن). خزَن اللحم (فسد وتغير). الدرن (الوسخ). دعن (مجن وساء خلقه). دان دوناً (خسّ وحقُر). دان ديناً (خضع وذلّ). ذعن (ذلّ وخضع). الأرعن (الأهوج). لِخن (أنتن). عفِن اللحم (فسد). هان (ذلّ). توجّن (ذلّ وخضع). خان. لحن (أخطأ).

وكان للمشاعر الإنسانية تسعة مصادر هي:

(الحنان، الحزن، هان، ذعن، دان ديناً (خضع وذل). شجِن. منها ثلاثة للحقد، هي أحِن، ودَمِنَ (حقد). ضغن عليه (حقِد).

وهكذا يكون حرف النون قد طبع بخصائصه الصوتية (62%) من معاني المصادر التي تنتهي به.

بعد أن طبع (76%) من المصادر التي تبدأ به. مما يدل على أن هذا الحرف النسوي الرقيق الأنيق يتمتع بشخصية فذة، لا يتمتع بمثلها أي من حروف الغلظة والشدة والفجاجة.

وذلك إشارة صريحة إلى مافي الرقة والأناقة من طاقات روحية كامنة.

مقارنات ونتائج:

بمقارنة معاني المصادر التي تبدأ بحرف النون مع نظائرها من المصادر التي تنتهي به نلاحظ أن تأثير هذا الحرف في المعاني يختلف باختلاف موقعه من اللفظة.

فلقد كان نصيب المعاني الدالة على الأصوات والاهتزاز والانبثاق والنفاذ في المصادر التي تبدأ بالنون (61%). بينما لم تبلغ هذه النسبة في المصادر التي تنتهي به سوى (4%).

أما المصادر التي تدل معانيها على الإقامة والاستقرار والإحاطة، والخفاء في الجداول الأولى، فلم يكن لها سوى مصدرَيْ (نام وأناخ). بنسبة تقل عن (1%)، بينما بلغت هذه النسبة في المصادر التي تنتهي بالنون (15%).

كما أن معاني الرقة والأناقة والضعف والجمال في المصادر التي تبدأ بالنون، كانت نسبتها (18%). بينما كانت نسبتها في المصادر التي تنتهي بها (25%).

ولكن لماذا طغت المعاني الدالة على الأصوات والاهتزاز، وما يفيد الانبثاق والنفاذ، على المصادر التي تبدأ بالنون، بينما كانت معاني الرقة والمرح والاستقرار والخفاء. ومتعلقات الأنوثة، أطغى على المصادر التي تنتهي بها.؟

والنون هي النون، إن في أول الكلام أو في آخره؟

ذلك أن العربي قد ميَّز بين شخصية النون في أول اللفظة، وبينها في آخرها، على مثال مانميز اليوم بين شخصية المرأة على رأس عملها، معلمة أو شرطية، رئيسة دائرة أو قاضية، نائبة أو وزيرة، وبين شخصيتها خلف رقيق الستائر، أُمّاً رؤوماً، وزوجة وفية، وربة بيت حانية، مصدر رعاية وإحاطة وحنان، وعنوان رقة وأناقة واستقرار واطمئنان.

فالنون في أول الكلام، لا يمكن أن تُلفظ إلا بشيء من النشاط والحيوية، لا بل كثيراً مايقتضي المعنى أن نرصَّ بالصوت على مخرجها، لتتحول إلى مايشبه النون المشددة، ليصبح صوتها بذلك أكثر رنيناً، وأشد اهتزازاً وفعالية، وبالتالي أصلح مايكون للتعبير عن المعاني الدالة على الاهتزاز والاضطراب والانبثاق والنفاذ، ومايحاكي رنينها من أصوات.

وذلك على العكس مما لو وقعت النون في آخر الكلام، فهي لا تلفظ هناك إلا مخففة، مرققة، منعمة، يسكن الصوت إليها، كأنه يستقر على فراش من حرير، فكان صوتها بذلك أصلحّ مايكون للتعبير عن معاني الرقة والأناقة والجمال والاستقرار والخفاء والإحاطة والطمأنينة.

وهكذا غابت معاني الإقامة والاستقرار عن المصادر التي تبدأ بالنون، كما غابت معاني الاهتزاز والتحرك عن المصادر التي تنتهي بها. ولولا النون المشددة

في آخر بعض المصادر لغابت عنها أيضاً، معاني الأصوات.

ومما يلفت الانتباه، أنه كان من بين المصادر التي تنتهي بالنون ثمانية مصادر تدل معانيها على النتانة، بينما لم يكن في المصادر التي تبدأ بها سوى مصدر واحد يدل عليها هو (نتن). لأنه ينتهي بالنون أيضاً.

فلقد رأى العربي أنّ مما يشوّه نطقه أنْ يبدأ اللفظة بنون مخنخنة الصوت بمعرض التعبير عن معاني العفونة والنتانة، بينما لاحظ أنّ الخنخنة بصوتها في آخر اللفظة هو أخفى لها وأقل تشويهاً للنطق بهما وأرضى لأناقتها، وهكذا بلغت نسبة المعاني الدالة على العيوب والنتانة، مما يستدعي الخنخنة بالنون، في المصادر التي تنتهي بها (13%). بينما لم تبلغ هذه النسبة في المصادر التي تبدأ بها سوى (1%).

كما يلفت الانتباه أيضاً عدم وجود أي مصدر يدل معناه على أية رائحة غير نتنة، عطِرة كانت أو غير عطرة، في جميع المصادر التي تبدأ أو تنتهي بالنون، على الرغم من رقة صوت هذا الحرف وأناقته، وذلك لأن صوت النون إذا لم يخنخن به، لا يوحي فعلاً بأية رائحة طيبة كانت أو غير طيبة.

وأنه لأمر عجيب أن يكون لذلك العربي الضارب في مجاهل الأرض والتاريخ هذه الحساسية السمعية والذوقية في التمييز بين موحيات صوت الحرف الواحد تبعاً لموقعه من اللفظة بمعرض التعبير عن معانيه.

ومن ألطف ماأبدع العربي وأذكاه في استعمالاته للنون أن اتخذها رمزاً للنسوة، فألحقها بالضمائر والأفعال، ليضفي عليهن وعلى فِعالهن من ألق النون طيف رقة وأناقة وعذوبة.

فالنساء عدما يقتلن أو يحرقن أويسبين، كان لابد لذهن العربي أن ينصرف مباشرة إلى المجازي الغزِل من معانيها، على العكس مما لو أسندت تلك الأفاعيل إلى الرجال.

ولم يقصر العربي عن هذا المستوى العالي من الذوق والذكاء بمعرض استعماله هذا الحرف في أغراض صرفية أخرى.

فلقد أبدع لفظة (ابن) بإلحاق النون بلفظة (أب)، كناية عن الحاق الأبناء بالآباء، وليس بالأمهات، وذلك توافقاً في المعاني بين موحيات صوت النون في نهاية الألفاظ وبين موحيات الطفولة، رقة ووداعة واستكانة، كما أنّثت الابنة بتاء التأنيث الملحقة بالابن، وذلك تأكيداً لهذه المعاني ولتقدم الابن على الابنة، وكل

مذكر على كل مؤنث.

وليس فيما أرى ثمة مجال للتأويل بأن الابن هو ظهور الأب، بالاعتماد على موحيات النون في الظهور والانبثاق، كما قال بعضهم، وإن كان الابن فعلاً وواقعاً هو ظهور الأب وانبثاقه في الوجود.

فالنون في نهاية المصادر لاتوحي بالانبثاق والظهور قطعاً، وإذا جاء مصدرا (دنّ وعنّ) الوحيدان بما يفيد الانبثاق والظهور، فذلك يرجع إلى النون المشدَّدة، وكذلك الأمر بصدد المصادر التي تدلُّ معانيها على أصوات بما يفيد الانبثاق والظهور، فإن ستة من سبعة منها تنتهي بنون مشددة، فتغلبت بذلك طبيعة صوتها الرنان على خصائص الاهتزاز فيه، كما مرَّ معنا في حرف الزاي، أما لفظة (شجنت الحمامة). فالنون هنا لتبيان مافي ترديد صوتها من رقة وحنان وحزن، وليس لتبيان مافي صوتها من رنين.

ومما لاشك فيه أنّ إلحاق النون في لفظتي ابن وابنة، قد تم في المرحلة الرعوية، وذلك جرياً مع التقاليد السائدة فيها، من حيث إلحاق الأبناء بالآباء، وليس بالأمهات، وفي تقدم الرجل بالتالي على المرأة.

وما كان ذلك ليضير الأم في مجتمع قائم بالفطرة على التشرد والقوة البدنية، لما فيه من الثقة بعفتها وأمانتها الزوجية، ومن ضمان حماية الرجل ورعايته لها ولأبنائها، ولو أُلحِقوا بالأمهات لضاع نسبهم ولفقدوا حماية الآباء. وذلك على العكس مما كان الحال عليه في المجتمع الزراعي المستقر، يوم (كانت) الحضارة الزراعية البكر تقوم على خبرة المرأة في شؤون الزراعة والتربية، فكان لها المقام الأول: ربة خصب تعبَد، وسيدة أسرة مستبدة تتحكم، تملك الزرع والضرع، ويلتحق الأزواج بها والأبناء.

وهكذا كانت نون النسوة بحدِّ ذاتها، عنوان ثورة ثقافية مستمرة في ضمير اللغة العربية، قادها الرجل الراعي ضدَّ المرأة الزارعة منذ آلاف الأعوام، عزْلاً لها عن مقام الصدارة في الأسرة، وتحجيماً لدورها القيادي في المجتمع، وذلك على مثال ماكانت تفاحة حوّاء عنوان ثورة على قداستها وخصوبتها وتسلطها بحكم خبراتها السابقة في شؤون الزراعة والبستنة وفي فنون التربية والسياسة والسحر، منذ آلاف الأعوام أيضاً.

وإذا كان للنون هذا الفضل الثقافي الكبير في الكشف عن طبيعة المجتمع الرعوي وتقاليده، فلقد كان لها على اللسان العربي فضل فصاحة وأناقة ورشاقة أعظم.

فلولا النون تقي المتكلم من الكسر بنون الوقاية، لا نكسر لسان كل عربي آلاف المرات كل يوم.

ولولاها تسكُن النفْسُ إليها وتطمئنُّ الأنفاس في آخر المثنَّى وجمع الذكور والأفعال الخمسة، وفي التوكيد والتنوين، لكثر اللغو في اللسان العربي، ولتعطل شعره وتبلدت أناشيده.

فللنون من رقيق الفضة الخالصة صافي رنينها، ومن أنين المفجوع ذوب صميمه، لا أمسُّ بإنسانية الإنسان منها ولا ألصق. ففي النون رِقَّة وعصير أنفاس وإلفة، لا أرشق بداية تبدأ الألفاظ بها ولا ألطف نهاية. ماجاورت النون حرفاً إلا وكان له من سنا أناقتها، طيفُ خِفة ورِقة ورشاقة، تفعل النون بأصوات الحروف، ماتفعله الأنيقات الأديبات في نفوس الناس هزاً لمشاعرهم وتهذيباً لعواطفهم، صَحابة عيش ووفاء، ورِفقة رِقَّةٍ وإحاطة وحَنان.

فكانت النون الأنيسة بذلك وحدَها، دنيا من المشاعر والشعر والموسيقى، لولاها ما اهتدى الإنسان إلى وترٍ يئنُّ وناقوسٍ يرنُّ، ولا إلى ناي أو كمان.

❐❐